أثر الحرب العامة

في الادب العربي السياسي

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

والمتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوجهه الى الاقلام احد العوامل التالية (١) رهبة تدفع الى الملاءة والتقية (٢) طمع يبعث على التزلف والمداهنة (٣) تهوس ديني يثير في النفوس التعصب والحماسة .

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فجبا بغتة ذلك التوتر العنصري وكممت الافواه والاقلام الا عن حمد الدولة وتمجيد سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلة عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملته بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدرات البلاد ، ثم قسمت الجهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز — والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شط العرب . وقد رأت ان تنظم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجيش ما جرى على يديه من بطش وارهاب . وعاقساءُ العرب في عهده من شدة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية الثمانية أدب سياسي حر وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تمتش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذ تلبس اثواب التعصب للسيف التركي او

الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كان قبل دخول تركيا الحرب يجاهر بميله الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرّ امّا الى التوقّف وإما الى مجاراة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الاّ بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الاّ اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانهُ لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبهُ طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبهُ بعدها ، ولاسيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »[1] ففي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظّمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية [2]

١ — لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدّة الخلافة الاسلامية

٢ — لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ — بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصون على الملإ ما شاهدوا وسمعوا وقد دوّنوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها —

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية — [3] يا صاحب الدولة والفضل : —

« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف تجمع شملنا ونسير في داخليتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب . ان الحياد ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الاّ مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقرونة لحياتنا السياسية والملية »

---

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ — تأليف الباشر — كرد علي — الخيالي — الانسي

(٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢ (٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ — ٥١

« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحّصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لتمّ فيها المضحك المبكي » . ومن الثاني :—

« يا صاحب الدولة — ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامانة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدّس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكنّهُ الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور . . . لهو أنصع برهان على السمي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيحقق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة —[1] « بيت عثمان باذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدّسة يقول — « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عَلَمنا الذي يظلّنا بفضلكم يا بني عثمان وحفظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنثور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنهُ الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الرعاوي وعبد الكريم عويضه ، وحسين الجمال ، وبدر الدين النسابي وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض — والبك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : —[2]

يا رجالَ الملك إنا أمــةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حيّها يا وفدُ حيّ جنــدها قاهر الاعداء بالسيف الصقيلْ
نصرَ الدينَ وأعلى شأنه فغدا الاسلام في ظلّ ظليلْ

ومنها مشيراً الى تراجع أسطول الحلفاء أمام قلاع الدردنيل

(١) راجع البعثة العلمية ص ٦٦ (٢) البعثة العلمية ٦٨

حيّ قوماً أدهشوا كل الورى بثبات العزم والصبر الجميلْ
قهروا الاسطول في البحر فما أبحر الاسطول ان عاد ذليلْ
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلْ
وبنو الشرق الى مصر انبروا « وجمال الدين » للفتح كفيلْ

ويؤيّد بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الريماوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآه الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول (١)

فجئنا الى دار السعادة والمنى حططْ رحال العزّ والعزُّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهدُ
تحفّ بنا القوّاد من كل جانبٍ وأقطاب دار الملك تحفى وتحمدُ
ومنها — خطبنا لهم جمّا وقد خطبوا لنا وأنشد منا القائلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

***

ومنها — رجعنا وما بالقول شيء لمعربٍ ولا بمعربٍ ينسى الجميل ويجحدُ
على أننا أبناء دين محمد بحكّم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

وله قصيدة أخرى مطلعها

تيقظتم حزماً فأيقظتم الدهرا وأعلمتمُ عزماً فأدهشتم العصرا

وفيها يقول (٢)

سلامٌ عليكم ما أجلّ فعالكم وأعظم في الايام آياتها الكبرى
سلامٌ على الدستور حلواً مذاقه وان كان بعض الناس قد ذاقهُ مرّا
حماةَ الهدى والملك لله درّكم على الخصم قد طبّقتم البرّ والبحرا
ومنها — سعيتم فقرّبتم بني الحرب منكم وقلّبهمُ الاخوان في الضرّ والسرا
فكانوا لكم أزراً على كل خارجٍ عدوّ وما كانوا وحقّكم وزرا
يعدّون هذا الملك فيهم ومنهمُ ولا ينقصون الترك سرّاً ولا جهرا
فكنتم نجاد الملك والعرب سيفه وكنتم يمين الملك والعرب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النسابي في احمد جمال باشا قال: (٣)

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا

(١) البعثة العلمية ٢٦٠ — ٢٦٥ (٢) البعثة العلمية ٢٠٨ (٣) البعثة العلمية ٢٨٥

ومنها : رمى الله منك الانكليزَ بصارمٍ صقيل يقدُّ الهندوانيَّ غامدا
عَتَوا وأبوا الاَّ لقاءك في الوغى أراهم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شط القتال معاقلاً سنبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
قطعتَ اليهم بالجيوش مفاوزاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزَّ جيشٌ كنتَ فيه رئيسهُ وعزَّت جموعٌ كنت فيهنَّ رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همةً وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرةً وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على علياكَ فيضَ براعتي ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينتشر في سوريا والعراق . وهو وان لايجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجاله فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوًى ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلى لنا فيه من الشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الاَّ ان المشهدين يختلفان . فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله [1] — « تتجه حتى العصور الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل سلم تمثله وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين البيت الخلافة — نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع »

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين أعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انهُ بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن تصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ [2] » وما ذلك الاَّ لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل . كاسماعيل صبري . وأحمد شوقي . وحافظ ابراهيم . وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ — م (بتصرف) (٢) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضاً به بلاغات الوكالة البريطانية

حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان (١)

فش الليل سلطاناً ايّا له في ملكه عقد وحلّ
ووالِ القوم انهم كرامٌ سيامين النقية ان حلّوا
لهم مُلكٌ على التامين(٢) اضحت ذراه على المعالي تستهلّ
وليس كقومهم في الترب قومٌ من الاخلاق قد نهلوا وعلّوا
فان صادقتهم صدقوك وداً وليس لهم اذا فتشت مِثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لبية » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز. وقد توفق الى حدّ يذكر له. اذ قال مشيراً الى عباس:

الله يعلم ما كفرتُ صنيعةً في ذا المقام ولا جحدت جميلا

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله

أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد وُلدت بباب اسماعيلا

ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال:

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم صاروا سماحاً في البلاد عُدولا
وأتوا بكابرها (٣) وشيخ ملوكها تسليكاً عليها صالحاً مأمولا

على انهُ لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المجاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي، بل ظل اكثر تحفظاً وأقل تطرفاً. واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فنشؤها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك صحائفهم ونفثات اقلامهم. ولم يكن على ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأً او صواباً) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

***

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فتشابه في جميع الاقطار اذ هو متبحث عن شعور الناس بوطأة الحرب. ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات

(١) الهلال ٢٣ — ٣٣٧ (٢) نهر لندن (٣) اي بالسلطان حسين كامل

بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منهُ في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيما بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة أشدها. ومن شواهده تلك القصائد التي قيلت في أهوال الحرب وفظائعها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها [١]

في كل ارضٍ وصقع مدافعٌ ثائراتُ
يقتلن كلَّ فتىً قد تفيد منهُ الحياةُ
وليس يبقين الاَّ ارامـلاً ويتامى

***

هناك بحرٌ يخضَمُّ يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نارٍ تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٍ يؤمُّ جيشاً لهُاما

***

من قاذفاتٍ صباحاً يهتزُّ منها المكانُ
وبارقاتٍ مساء يحمرُّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلٍ يبتنَ موتاً زؤاما

***

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطب جُسام
فوق الرغام دماء يحمرُّ منها الرُّغام
والارض تشرب منها ولا تبلُّ أُواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « متى تضع الحرب أوزارها » ومنها: [٢]

ربوعُ الحضارة أمست محـــطَّ النسور ومنتجعَ الاضبُعِ
وإنَّ ابن آدم شرَّ الضواري اذا هاجهُ هائجُ المطمعِ
فتى الحرب سلْ عنهُ نيرانها وحُمر الدماء على اليرمعِ
وأشلاء قتلى أبادهمُ مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو أردنا ان نسرد القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وثرمل نساء وتيتم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب المواضيع الاجتماعية فنرجيء الاسهاب فيهِ الى فرصة أخرى

(١) ديوانه (١٩٢٤) ١١٤ (٢) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٧ — ٥٩٨

لراهبي الراعي

فكتور هيجو

شاعر الشعراء

كل شعر من أشعار هيجو أصبع من كف السماء ، تشير الى مجده . . . . ولسان من نار يتدلع في سماء الادب والتاريخ ..

الجيل في روعته والبحر في زبده ودرره وأمواجه والافق في سموه وترامي أطرافه اجتمعوا ذات يوم وتداولوا في من يقيمونهُ محامياً يعبّر عن أسرارهم المستقرّة في أعماقهم فاستقرّ رأيهم على ان يكون الشاعر ذلك المحامي، ونطق الشاعر فاذا هو هيجو . . .

ولد فكتور وعلى رأسه سربٌ من النسور هبطت من أعالي الفضاء وهي مأخوذة بزميلها الجديد ، مضطربة من مستقبله ومنافسته . .

في ذلك اليوم كان يوم النسور يوماً قاتماً .. أتاها شاعر الشعراء فما هي بعده.. وماذا تفيد حوماتها . . .

ولد فكتور فكان يوم ولادته كيوم نابليون في وحيده فلقد تناوله الشعر في ذلك اليوم وأطلّ به من شرفة الادب على دولة الادب وصاح : المستقبل لي ..

ولد في مقر الاولمب في ظلّ جوبيتر ، وعلى وجهه نور من أنوار السماء ، وأطلّ على الحياة تعب الفؤاد لاهث الصدر من وطأة القرون على منكبيه فقدّم لهُ فرجيل كأساً من الخمرة صبّ فيها البحر من زبده فشرب فلم يُطفىء غليله فشرب من دمه فلم يُطفىء غليله فالتقط دموع الناس دمعة دمعة فلم يُطفىء غليله فلما ضاق به الامر شرب من قلبه طبقة ليه فلما أطلّ عليه الفجر كان قد أحرق دمه في القراطيس فكان مسيح الشعر . . ولما اشتدّ ساعدهُ جاءهُ هوميروس وقال لهُ : أنا الضرير رأيتك على الرغم من عماي فقد شقت أشعتك حجاب نظري . . وأقبل عليه موسه فجلسا ساعة ، تحت الصفصافة الباكية ، وصعد لامرتين الى قمة الجبل ونفخ في البوق مبشراً الدنيا بقدوم شاعر الشعراء . . .

فكتور هيجو . . ومن لا يعرفهُ . فكتور . . وكفى . .

ورأى اباالهول فقال له: لقد أتيت فاسمع فأنا في صرختي العجيبة أنت في صمتك العجيب